الفصل الثانى

العلاقة بين العلم والدين

obeikandl.com

obeikandl.com

نذهب إلى أن نقد التيارات الفكرية المعاصرة فى خصومتها مع الدين يتم ضمن نظرية شاملة: ترى أن هذه التيارات تنطلق جميعا من وجهة نظر معينة فى العلاقة بين الدين والعلم وتقدم رؤيتها من خلال معتقدات، ... فهى دين بوجه ما.

وترتكز مقاومة هذه التيارات – فى ضوء هذه النظرية – على تصحيح العلاقة بين الدين والعلم، وإبراز معتقدية الأسس تقوم عليها تلك التيارات، وضرب القواعد التى تنطلق منها.

ومن هنا تبرز أهمية دراسة العلاقة بين العلم والدين.

ونحن لا نعنى هنا بدراسة هذه العلاقة بسرد أدوارها التاريخية التى مرت بها فى الحضارات المختلفة، بقدر ما نعنى بدراسة وضعية هذه العلاقات فى نظر المفكرين المعاصرين.

وهنا يمكننا أن نصنف هذه الأنظار إلى ثلاثة اتجاهات:

الاتجاه الأول:

وهوي يرى ضرورة "الفصل" بينهما فصلا تاما. بحيث يكون لكل منهما مجاله الخاص، يقرر بحرية ما يشاء دون تدخل من الطرف الآخر على وجه الإطلاق. فهو فصل فى الوسائل والنتائج على السواء.

يقول أميل بوترو فى كتابه "العلم والدين":

"لقد ظن البعض فى نهاية القرن التاسع عشر أن المشكلة بين الدين والعلم حلت بوضعهما فى ثنائية حاسمة يصبح فيها كل منهما مطلقا على طريقته، ومتميزا عن صاحبه تميز الذكاء والعاطفة، أو تميز العقل والقلب.

واستنادا إلى هذه الثنائية لاح إمكان وجودهما معا فى صدر إنسان واحد، بحيث

يقومان جنبا إلى جنب، على أن يتفادى كل منهما بحث مبادئ الآخر ووسائله ونتائجه".

(أ) ويبدو أن هذا الاتجاه هو ما تحاوله المسيحية المعاصرة، إذ لا يرى المسيحى المعاصر بأسا فى التناقض بين ما يقرره العلم فى الجامعة، وبين ما تقرره المسيحية فى الكتاب المقدس.

فالأناجيل – على سبيل المثال – تقرر نسب المسيح على نحويين متناقضين تماما بين ما جاء فى إنجيل متى وإنجيل لوقا.

والعهد القديم من الكتاب المقدس – على سبيل المثال أيضا – يقرر ظهور الليل والنهار والصباح فى اليوم الأول قبل خلق الشمس والنجوم فى اليوم الرابع، وهذا ما يتعارض مع العلم.

وفيه أن خلق العالم يرجع إلى حوالى ستة آلاف عام لا أكثر وهذا يتعارض مع العلم كذلك.

وفيه أن الطوفان عندما حدث أكتسح المعمورة كلها وأنه حدث فى القرن الحادى والعشرين قبل الميلاد وهو عصر ظلت معه وبعده حضارات سابقة فى مصر وبابل دون مساس، وهذا يتعارض مع العلم أيضاً[1].

وهذه معارضات لا تحتمل الإنكار ولا تحتمل التوفيق.

وهنا كان لابد للاتجاه الدينى المسيحى من أن يلجأ إلى وضع العلاقة بين العلم والدين فى وضعية الفصل بينهما.

يذهب المسيحى إلى الكنيسة ليستمع فى هدوء تام إلى تلك الروايات المتعارضة مع العلم، كما يمارس عملية الاتحاد بجسد المسيح المرفوضة علميا.

ثم يخرج من الكنيسة ليقرر فى الجامعة أو فى المعمل أو فى مركز البحوث العلمية: أمورا تتعارض تماما مع ما استمع إليه هناك.

وقد لجأ إلى هذا الحل أيضا – الفصل التام بين العلم والدين – بعض المستغربين

---

(١) انظر دراسة الكتب المقدسة فى ضوء المعارف الحديثة لموريس بوكاى نشر دار المعارف ص ٤١ إلى ص ٤٧ ص ٥٣.

من المسلمين الذين اعتنقوا مذاهب الحادية – وضعية، أو وضعية منطقية أو مادية، أو ماركسية الخ – وعندما طعنوا فى السن، أو رجعوا إلى أوطانهم وجدوا صراعا داخليا لم يصل بهم إلى حد الاعتراف، بالإلحاد أمام أنفسهم أو أمام الناس، فباركوا هذا الحل ونادوا بالفصل، وتوزيع الاختصاص، وقالوا: نمارس الدين فى ساعة هى للوجدان، ونمارس العلم فى ساعة هى للعقل، أو كما يقول – بعضهم – جعلوا فى صدورهم بيتين، أو غرفتين، (أو قلبين؟؟)[1].

---

(١) "ما جعل الله لرجل من قلبين فى جوفه" ولاحظ أن هؤلاء المستغربين عندما فعلوا ذلك لم يفعلوا لمعارضة بين العلم والإسلام ولكن لمعارضة بين الإسلام وما اعتنقوه من مذاهب، ومن الأغاليط الشائعة أن هؤلاء يروجون للعلم على أساس أنه " يتجاوب مع "العقل" ويغذيه بينما الدين يخص العاطفة. وهم فى ذلك واهمون أو جاهلون بالتطور الذى صار إليه العلم: فالعلم يتصل بالمشاهدات والخبرات اليومية المباشرة ليستخرج منها مبادئ. أما العقل فهو يتصل بالبديهيات الجلية ليستخرج منها فلسفة.

يقول فيليب فرانك (وضع مبادئ نستطيع أن نستنبط منها تطبيقات وحقائق مشهودة هو ما نسميه اليوم "علما" والعلم لا يهتم كثيراً بما إذا كانت هذه المبادئ معقولة أم لا، فهذا أمر لا يعنى العالم كعالم، وفى كثير من الكتب الدراسية نجد ما ينص على أنه ليس من المهم اطلاقا أن تكون هذه المبادئ معقولة، وتذكر هذه الكتب أن مبادئ علوم القرن العشرين كالنسبية ونظرية الكم ليست معقولة على الإطلاق، ولكنها متناقضة فى ظاهرها ومشوشة. وعندما ظهرت مبادئ النسبية وميكانيكا الكم قال بعض الناس: ربما أمكن استنباط نتائج مفيدة من هذه المبادئ، ولكن المبادئ نفسها غامضة، بل هى فى ظاهرها متناقضة. أنها تخدم غرضا معينا إلا أنها ليست جلية، أننا لا نفهم النظريات كما نفهم الميكانيكا النيوتونية) فلسفة العلم ٣٣.

وما يزيد الأمر وضوحا فى الانفصال الذى يزداد يوما بعد يوم بين مجال التفكير العلمى والتفكير الفلسفى أو العقلى: ما يقوله فيليب فرانك: (كثير من المصطلحات التى كانت تستخدم من قبل فى لغة العلم لم يعد ممكنا أن تستخدم الآن، لأن المبادئ العلمية المعاصرة تستخدم الآن مصطلحات أكثر نأيا عن لغة الفطرة السليمة. فالتعبيرات من طراز "العقل" و"المادة" و"السبب" و"النتيجة" هى اليوم مجرد تعبيرات فطرة سليمة، وليس لها مكان فى البحث العلمى الدقيق.

وعلينا لكى ندرك هذا التطور أن تقارن بين فيزياء القرن العشرين، وسالفتها فى القرن الثامن عشر والتاسع عشر.

استخدمت الميكانيكا النيوتونية مصطلحات مثل "الكتلة" و"القوة و"الموضع" و"السرعة بمعنى يبدو قريبا – إلى حد ما – من استخداماتها فى الفطرة السليمة.

وفى نظرية انيشتاين للجاذبية نجد مصطلحات مثل (أحداثيات الحدث) أو (الجهود الممتدة الكمية) وهى مصطلحات تحتاج إلى سلسلة طويلة من التفسيرات لكى ترتبط بلغة الفطرة السليمة.

ونجد هذا الأمر أكثر صحة فى مصطلحات نظرية الكم مثل (الدالة الموجبة) و(مصفوفات الموضع)... الخ وقد تحدث انيشتاين فى محاضرة له فى اكسفورد عام ١٩٣٢ عن (الفجوة التى يتزايد اتساعها بين المفاهيم والقوانين الأساسية من ناحية والنتائج التى يجب أن نربطها بخبرتنا من ناحية أخرى وهى الفجوة التى تتسع باضطراد)=.

أما الإسلام فهو لا يقبل هذا الحل من ناحية، لأنه هو الإسلام الشامل كما سبق أن أوضحنا، ولأنه غير مضطر لشيء من ذلك من ناحية أخرى، لأنه كما يقول موريس بوكاى عن القرآن (إن القرآن لا يخلو فقط من متناقضات الرواية - وهى السمة البارزة فى مختلف صياغات الإنجيل - بل هو يظهر أيضا لكل من يشرع فى دراسته بموضوعية وعلى ضوء العلوم التوافق التام مع المعطيات العلمية)[1].

ونحن لا نشير إلى هذا التوافق الذى أشار إليه بوكاى باعتباره صياغة نموذجية للعلاقة بين العلم والدين، ولكن باعتباره دليلا على عدم اضطرار المسلم إلى وضعية (الفصل).

(ب) وبعد: فهل وضعية (الفصل) هذه مقبولة علميا أو مقبولة دينيا؟.

وللرد على هذا السؤال نقول بالنفى، على المستويين، العلمى والدينى.

أما العلمى فلأن البحث العلمى فى شخصية الإنسان ينتهى إلى كونها وحدة متداخلة متكاملة لا تستقر بغير التمازج والتوافق بين عناصرها المختلفة.

فليس فى مقدور إنسان أن ينشئ فى داخله قلبين، أو أن يعزل فى صدره بين حجرتين لتكون إحداهما مخزنا لقرارات تنكرها مخزونات الحجر الأخرى، وكما يقول أميل بوترو عن هذه الوضعية (إن المشكلة حلت بذلك فى عالم التصورات أما فى عالم الواقع فليس الأمر كذلك، إذ أين نجد فى الإنسان الحد الفاصل بين العقل والقلب؟ وأين نجد فى الطبيعة الحد الفاصل بين الأجسام والأرواح....)؟

إنه لا مفر تحت وضعية الفصل هذه من أن تصير شخصية الإنسان إلى أحد أمرين:

إما المرض والانحلال، وإما التوثب لغلبة أحد الجانبين للآخر، وهذا هو سر

= يقول هربرت دنجل: أننى عندما أؤكد على ضرورة تحرير الفلسفة العلمية من تطفل المفاهيم (المستساغة) (مفاهيم الفطرة السليمة) فإنى لا أفعل ذلك للحط من قيمة الفطرة السليمة وإنما لأن الخطر الأكبر إنما يكمن اليوم فى هذا التشويش) أنظر فلسفة العلم ص ٧٠ - ٧١هـ الهامش.

(١) دراسة الكتب المقدسة فى ضوء المعارف الحديثة لموريس بوكاى ص ٢٨٥.

الانفصال الذي يتغلغل فى شخصية الأوربى المعاصر، المتعرض لتيار العلم وتيار الدين، أو هو سر الانغلاق الذى يحتمى فيه بتيار ضد تيار آخر.

وأما على المستوى الدينى: فهذه الوضعية مرفوضة إسلاميا، لأن الإسلام هو الإسلام الشامل، هو الذى يحتوى الشخصية من جميع أقطارها، ولا يرضى لها بغير ذلك[1] وهكذا ينبغى أن يكون الدين.

الاتجاه الثانى:

الوضعية الثانية المقترحة لإرساء العلاقة بين العلم والدين: هى وضعية (التوفيق)[2] بينهما فى النتائج: وإن اختلفت الوسائل. ومن الواضح أن هذا الشعار: شعار التوفيق إنما يرفع فى ظل سيادة العلم، فهو يعنى أن يكون المرجع فى عملية التوفيق هذه إلى العلم لا إلى الدين، ومعنى هذا أن يعاد تفسير الدين أو نصوصه أو معطياته – عندما يبدو أنها تتعارض مع العلم – لكى تتفق مع مقررات العلم التى يستقل بتقريرها بحرية كاملة، دون وصاية من أحد.. وشرط هذا التوفيق أن يبدو النص الدينى متقبلا للتفسير الجديد، دون محاولة التخلص منه.

ويبدو أن هذا الاتجاه تمارسه المسيحية جزئيا عندما يكون هذا التوفيق ممكنا، كما يمارسه بعض الدعاة فى الإسلام وهو سهل عليهم، لما سبق أن قررناه عن خلو القرآن من التناقض مع العلم.

ونحن نقر هذا الاتجاه فى مجال الدعوة التى تستهدف الهداية، ولا نقره فى مجال تأصيل القضية: قضية صياغة العلاقة بين العلم والدين. ذلك لأنه فى مجال الدعوة يباح للداعية أن يؤثر فى المدعو بما يتيسر له من وسائل، إذ العبرة فى الوصول إلى هداية المدعو، وعندئذ للداعية أن يتوسل لذلك بالقدرة الشخصية، وله أن يتوسل لذلك بنوع من السلوك المحبب، وله أن يتوسل لذلك باعتماد المدعو لوسيلة

---

(١) انظر ما كتبناه عن "الإسلام الشامل" وانظر كتابنا (معالم شخصية المسلم).

(٢) نقول التوفيق، ولا نقول التوافق.

obeikandi.com

الفلسفة أو العقل، وله أن يتوسل لذلك باعتماد المدعو لوسيلة الوجدان، وله أن يتوسل لذلك باعتماد المدعو لوسيلة (العلم). الخ

إذ العبرة فى النهاية بجذب المدعو إلى ساحة النجاة، وأمن الإيمان، بالمقياس الذى يرتاح إليه.

أما فى مقياس النظر الأصولى فى وضعية العلاقة بين العلم والدين، فذلك الوضع – وضعية التوفيق – غير مقبول فى مقياس الفلسفة العلمية أو فى مقياس العقيدة الدينية على السواء..

(أ) أما أنه غير مقبول فى باب الفلسفة العلمية فذلك:

لأن العلم لا يقر بمشروعية استفادة الدين به، وهو يرى أن تصديقه لبعض حقائق الدين إنما يقع اتفاقا، أو على أحسن الفروض ظاهرة تفتقر إلى تفسير تجريبى، وهو على كل حال اتفاق لا قيمة له فى نظر المنهج العلمى.

ومن وجهة نظر المنهج العلمى، وكما يقول أحد فلاسفة الإلحاد المعاصرين (أرنست هيكل ١٨٤٠ – ١٩١٩): (الأديان تقوم على الوحى، والعلم لا يعرف إلا التجربة، ولا قيمة فى نظرة لأى فكرة إذا لم تكن تعبيرا مباشرا عن وقائع، أو نتيجة لاستنباط محدود قائم على القوانين الطبيعية).

وكما يقول أحد الفلاسفة المعاصرين (أميل بوترو): إن العلم أصبح يكفى نفسه فى نموه وتطوره، وإن أول سمة للروح العلمية من الآن فصاعدا هى عدم التسليم بأى مبدأ للبحث، وأى مصدر للمعرفة سوى التجربة، فالعلم يوضع فى نظر العالم كأنه أمر أولى مطلق، ومن العبث أن يطلب منه اتفاقه مع أى شئ...).

(وبالرغم من أن العلم الحديث يتسم بالتواضع، ويعترف بنسبية المعلومات التى يتوصل إليها ولا يدعى لها الصحة المطلقة إلا أن ذلك لا يعنى – فى مفهوم العلم التجريبى – أنه يعترف بأن خارج الميدان الذى يتحرك فيه العلم يوجد ميدان أخر يباح لأنظمة أخرى أن تعيش فيه، ولكنه على العكس من ذلك يعمل على أن

يمنع العقل البشرى من ارتياد أى ميدان ليس فى متناول العلم، لأنه إذا كان ثمة شىء لا يمكن أن يعرفه العلم فهذا الشئ من باب أولى لا يمكن أن يعرفه أى نظام آخر).

والعلم وفقا لإحساسه - المزيف - بالكفاية[1] التى يختص بها وحده فإنه حين يقول: إنى أعلم، فمعنى ذلك أن الشئ الذى يعلمه موجود بالنسبة للعقل البشرى، وحين يقول العلم: لا أعلم فهذا يعنى أن أحدا لن يدعى المعرفة.

وبناء على ذلك فإن العلم الحديث المتواضع العارف لحدوده ليس أكثر ملاءمة للدين، من العلم الدجماطيقى، فالدين من وجهة نظر العلم - فى الحالتين - ليس إلا مجموعة تصورات تعسفية. ولا يكفى - من وجهة نظر العلم - أن نتعلل بأن ما نتمسك به مما يتجاوز حدود العلم يمكن أن يأخذ مكانته باعتباره (اعتقادا) لأن (الاعتقاد) من وجهة النظر العلمية ليس له قيمة إلا إذا كان ثمرة ملاحظة وتجريب[2].

(ب) أما أن هذا الاتجاه - أعنى وضعية التوفيق على أساس العلم - غير مقبول دينيا:

فذلك لأن هذا التوفيق - وقد أشرنا إلى أنه يتم على أساس العلم - يلغى جوهرية الدين ويسقطه من منزلته.

ذلك لأن جوهر الدين يقوم فى كونه متبوعا لا تابعا، إنه كلمة الوحى، ولا يمكن أن تنتظر كلمة الوحى أو تتعطل أو تتحور تبعا لكلمة العلم مهما تكن درجته من الظن أو درجته من الظن أو درجته من اليقين.

والدين بغير وحى ليس دينا.

والدين بغير اتّباع ليس دينا.

---

(١) سوف نناقش قضية كفاية العلم فى الباب الرابع.

(٢) أنظر مزيدا من البحث فى هذا الموضع فى كتاب (العلم والدين) للفيلسوف الفرنسى المعاصر أميل بوترو. وأنظر ما كتبناه فى الباب الرابع عن عدم كفاية العلم فى مجال المعرفة، وعدم كفايته فى مجال القيم.

وعلى هذا فإن الدين ينكر هذه الوضعية المقترحة وضعية (التوفيق) بينه وبين العلم، وهى كما قلنا تقوم – عصريا – على سيادة كلمة العلم.

وقد يقول قائل: إن هذه التبعية ليست للعلم إلا لأنه حق، والدين لا يتعارض مع الحق[1].

وهنا نحيل مرة أخرى إلى المنهج إجمالا فنقول:

منهجيا من الذى يحق له أن يعلن أنه توصل إلى (الحق)؟

الوحى؟ أم جهد بشرى فى الفلسفة؟ أم جهد بشرى فى العلم؟

من الواضح أن (الدين) لا يمكن أن يتنازل عن سيادته المنهجية إلا بالتنازل عن كيانه وجوهره.

كما نود أن نفصل الكلام فى هذه المسألة بعض التفصيل من ناحية المسائل التى يتقدم بها العلم.

ومسائل العلم يمكن تصنيفها إلى ثلاثة مجموعات: (١) النظريات كنظرية النشوء والارتقاء (٢) والقوانين كقانون الجاذبية (٣) والوصف المباشر للوقائع مثل إحصائية لحركة المرور فى شارع أو ميدان، أو الكشف عن أطوار التكوين للجنين.

ومن الواضح أنه لا مجال لافتراض التعارض بين الدين الصحيح وبين الوصف المباشر للوقائع وذلك لسبب بسيط هو أن هذا الوصف لم يكن يوما – ولن يكون – ملكا للعلم على أى نحو من الأنحاء.

إنه مقدمة للدخول فى العلم: والعلم إنما يبدأ بوضع هذا الوصف فى نظرية أو قانون.

يقول فيليب فرانك فى كتابه فلسفة العلم:

---

(١) وهذا أشبه بما قاله ابن رشد فى فصل المقال فيما بين الشريعة والحكمة من الاتصال.

obeikandi.com

(إن مجرد تسجيل المشاهدات لا يزودنا إلا بنقاط (راقصة) وإن العلم لا يبدأ إلا إذا استطردنا من هذه الخبرات المستساغة (خبرات الفطرة السليمة) إلى الأنماط البسيطة للوصوف التى نسميها (نظريات)[1]. لنتخيل أننا أسقطنا جسما فى الهواء. وليكن مثلا قصاصه ورق خفيفة (مثل ورقة السيجارة) فماذا يحدث؟ إذا فعلنا ذلك مرات عديدة - مئات أو آلاف المرات - فسوف نلحظ أن تحرك الورقة يختلف فى كل مرة عن تحركها فى المرات الآخرى.

وتراكم هذه المشاهدات ليس علما.

وليست هذه هى الطريقة التى يعمل به الفيزيائى ما لم تكن فى مجال غير متقدم كثيرا حيث لا يكاد يعرف عنه أى شىء.

وإذا درسنا الفيزياء فسوف نعرف بعض المبادئ عن الحركة المنتظمة والحركة المتسارعة، والحركة الناشئة عن الجمع بين هاتين الحركتين. هذه خطط من خطط الوصف ويجب أن نبتدع هذه الخطط قبل أن نختبرها، لكن كيف السبيل إلى ابتداعها؟ هنا يتدخل الخيال البشرى. إنا نحاول أن نتخيل خطة بسيطة ولكن ما هو المعنى المقصود بالبساطة؟ إننا يجب أن نبتدع هذه الخطط قبل أن نختبرها، لكن كيف السبيل إلى ابتداعها؟ هنا يتدخل الخيال البشرى. إننا نحاول أن نتخيل خطة بسيطة ولكن ما هو المعنى المقصود بالبساطة؟ إننا يجب أن نحاول كل الخطط المختلفة التى يمكن تخيلها حتى نعثر على الخطة التى تصف لنا بالتقريب الحركة الحقيقة لقصاصة الورق الساقطة فى الهواء).

ثم يقول: (ويمكننا أن نستنبط من الخطة أشياء عديدة معينة ولكننا لا يمكننا أن نستنبط كل شئ)[2].

ويقول فيليب فرانك أيضا:

---

(١) انظر فلسفة العلم لفيليب فرانك ص ٢٣ وما بعدها.

(٢) فلسفة العلم ص ٢٤ - ٢٥.

(من المهم أن نتذكر دائما أن العلم ليس جمعا للحقائق. فليس هناك على يبنى بهذه الطريقة. فإذا جمعنا نصوصا تبين الأيام التى يسقط فيها الجليد على لوس أنجلوس فهذا ليس علما، ولا يكون لدينا علم إلا إذا وضعنا مبادئ نستطيع أن نستنبط منها الأيام التى سوف يسقط فيها الجليد على لوس أنجلوس. وفوق ذلك إذا كانت المبادئ التى نضعها تبلغ من التعقيد حدا مثلما تبلغه الخبرة ذاتها فلن يكون ذلك اقتصادا ولن يكون علما بمعناه المحدد. إن عددا كبيرا من المبادئ يستوى مع مبدأ واحد شديد التعقيد..

إذا لم يكن هناك عدد صغير من المبادئ، إذا لم يكن هناك تبسيط فلن يكون هناك علم.

وإذا قال أمرؤ إنه لا يريد معادلات، وأن ما يريده هو مجرد الحقائق كلها، فإنه يكون ساعيا فقط إلى الخطوة التمهيدية للعلم، وليس إلى العلم نفسه[1].)

فإذا نحن استبعدنا الحقائق المفردة من مجال بحث العلاقة بين العلم والدين ينتقل بنا الكلام عن هذه العلاقة فى مجال النظريات والقوانين العلمية.

وهنا نعود لمناقشة القول بأن العلم يمثل (الحق).. لنحيل إلى ما تقرر فى الأوساط العلمية من أنه لا يقين فى العلم، وإنما ظنون وظنون، تقدم للتجربة، لتمتحن فيها، لتتعدل إلى ظنون أخرى لتقدم للتجربة، لتمتحن مرة أخرى، وهكذا بغير نهاية[2]، وهذه هى نقطة الضعف فى العلم، وهى سر الاستمرار والتقدم فيه أيضا.

إن الاتجاه الوضعى المعاصر يذهب إلى اعتبار القانون العلمى اختراعا وليس كشفا.

يقول فيليب فرانك:

(يبحث العالم عن صيغة يستطيع المرء أن يستنبط منها الوقائع المشاهدة ويتطلب

---

(١) فلسفة العلم لفيليب فرانك ص ٦٦ – ٦٧.

(٢) أنظر (مبحث حتمية القوانين الطبيعية) فى كتابنا هذا.

العثور عليها تصورا خلاقا من جانب العالم. وإذا أردنا أن نصف هذا العثور على الصيغة فإن هناك طريقتين لهذا الوصف:

فيمكننا أن نقول: إن هذه الصيغة من اختراع العالم، وأنه لم يكن لها وجود قبل أن يعثر عليها العالم. إننا نقارنها باختراع مثل اختراع التليفون الذى لم يكن موجودا قبل أن يخترعه (الكسندر جراهام بل) فالفرض أو الصيغة هى نتائج للتصور البشرى، هى نتاج لقدرة العالم على الاختراع. ويجب اختبارها بالتجربة الحسية.

ومع ذلك يمكن أن نقول: إن الصيغة كانت موجودة دائما ضمن الحقائق المتطورة، وقد اكتشفها العالم كما اكتشف كولومبس أمريكا، والعالم ليس مخترعا، إنه (يبصر) الصيغة (بفطرة الباطن)...

فالعالم يستخدم البصيرة فى اكتشاف الصيغة).

وهنا يأتى السؤال: أى الطريقتين نختار؟

يقول فيليب فرانك:

(تتفق الطريقة الأخيرة فى وصف نشاط العالم مع التقليد العظيم للفلسفة المدرسية "الكلاسيكية").

وهذه الفلسفة كانت – كما يقول هانزريشنباخ – (تعتقد بوجود بصيرة رؤية بواسطة العقل تناظر الرؤية بواسطة العين)[1].

أما الطريقة الأولى التى تصف العالم بأنه مخترع فهى كما يقول فيليب فرانك: (أقرب إلى خط الفلسفة الوضعية، والفلسفة الذرائعية).

ويقول: (يقول المحدثون من العلماء إن الفروض والصيغ من نتائج التخيل، وإنما تختبر بالتجربة والخطأ..)[2].

---

(١) هذا التماثل بين الرؤية بالعقل والرؤية بالعين هو الذى دعا الفلسفة إلى القول بأن البدهيات غنية عن البرهان، أنظر فلسفة العلم ص ٣٧.

(٢) فلسفة العلم ص ٣٤، ٣٥.

obeikandi.com

وسواء كان هذا أو ذلك فهى تتزحزح عن مرتبة اليقين

إن العلماء يصرحون اليوم بأن التجربة تعزز الفرض ولا تثبته، وإنه لا يوجد ما يسمى (التجربة الحاسمة).

يقول فيليب فرانك: (إن الفرض لا يمكن (إثباته) فالتجربة (تعزز) أحد الفروض، فإذا لم يجد شخص ما حافظته فى جيبه فإن ذلك يعزز الفرض بوجود لص بالمقربة، ولكنه لا يثبت هذا الفرض، فقد يكون هذا الشخص قد ترك حافظته فى بيته، ومن ثم فإن الحقيقة المشاهدة قد تعزز فرضا آخر بأنه نسيها. واية مشاهدة تعزز كثيرا من الفروض. والمشكلة هى أن تحدد درجة التعزيز المطلوبة، فالعلم يشبه قصة بوليسية. إن كل الحقائق قد تعزز فرضا معينا، ولكن الفرض الصحيح قد يكون مختلفا اختلافا كليا. ومع ذلك يجب أن نقر بأنه ليس لدينا معيار للحقيقة فى العلم غير هذا المعيار).

ويقول بيير دوهيم: (إن التجربة الحاسمة فى الفيزياء أمر مستحيل)[1]. ومن ذلك يتبين لنا أن ما يقدمه العلم من النظريات والقوانين لا يصل إلى مرتبة اليقين.

وهى – أى هذه النظريات والقوانين – ليس (الحق) الذى ترتعد أمامه الفرائص، ويتحدى الإيمان، أو يستولى عليه.

الاتجاه الثالث:

وهو يرى ضرورة المواجهة الموضوعية بين الدين والفلسفة العلمية المتخفية وراء العلم – ليكون لأحدهما الكلمة العليا.

وهنا يظهر تياران:

(أ) تيار إسلامى: يجعل الكلمة العليا للدين، وعندئذ فهو يعترف للعلم بوسائله، ولكنه (يستخدمها) لأهدافه العليا، ليصل منها إلى (نتائج) تتفق مع هذه الأهداف ولا تختلف معها.

---

(١) فلسفة العلم ص ٣٦، ص ٥٥.

وإذن فهى معركة بين (الفلسفة العلمية) والدين، ينبغى فى نظر هذا التيار أن تنتهى، لا بالقضاء على العلم، ولكن بإخضاعه للدين باعتباره خادما له، أو وسيلة من وسائله.

وإنك لتجد الأمر على هذا النحو – أى صيرورة العلم خادما للعقيدة – فى أشد البيئات تمسحا بشعار العلم، ففى مقال نشرته البرافدا فى عام ١٩٤٩ يقول رئيس أكاديمية العلوم فى الاتحاد السوفيتى س. أ. فاينلوف تحت عنوان (لينين والمسائل الفلسفية للفيزياء الحديثة):

(إن الفيزياء السوفيتية (!!) تبنى عملها على ما اعتنق العالم من المادية الديالكتيكية) وليس العكس، وفى مقال آخر نشرته مجلة أسبوعية إنجليزية (ناتشر) فى مايو ١٩٥٠ يقول أحد أعضاء هذه الأكاديمية (إننا أعلنا مرارا ولا نزال نعلن أن العلم هو علم حزبى طبقى).

ولسنا بحاجة إلى أن نؤكد أن هذه الوضعية هى السائدة فى الجانب الآخر من الحضارة الحديثة، إذ يقوم العلم بدوره كخادم للعقيدة السائدة: تلك التى تقوم على مفاهيم المتعة الحسية، والقوة المادية، وهى مفاهيم ورثتها الحضارة الأوربية الحديثة عن الحضارة الرومانية القديمة، وأكدتها أنظار الفلاسفة الذين قيض لهم السيطرة على العقل الحديث.

وهذا الاتجاه لا يفترق فى جوهره عن الدور الذى كان يمارسه رجال اللاهوت فى العصور الوسطى فى أوربا، وكما يقول الأستاذ إسماعيل مظهر فى مقدمته لترجمة كتاب "بين الدين والعلم" (قامت لدى اللاهوتيين فكرة ثابتة فى أن العلم لا يصح أن يبشر فيه بأقل مخالفة لما جاءت به الأسفار المقدسة والمتون).

هكذا الأمر فى جميع الحضارات والعصور: يحتل العلم مكانته تحت توجيه الدين، والفرق بين حضارة وأخرى، وبين عصر وآخر إنما يأتى من طبيعة الإيمان الذى تعتنقه الحضارة أو يعتنقه العصر، وإنه فى ظل العقيدة الإسلامية لم يجد العلم

نفسه فى حالة حصار أو إحباط، وإنما كان الأمر على العكس من ذلك، وجد العلم نفسه – والعقل أيضا – محررا من أغلال النظم المزيفة الصادرة عن غير الله تعالى، مالكا الأمان فى رحاب النظام الإلهى، ومن ثم كان من الطبيعى أن تأخذ النزعة العلمية فى الحضارة الإسلامية أعلى مقام أخذته فى التاريخ. ولسنا نريد أن نكتب فى هذا المقام كلاما مكررا عن أستاذية الحضارة الإسلامية للمنهج التجريبى الذى قامت عليه الحضارة الحديثة، فهذا ما شهد به المؤرخون جميعا، ولكنى أكتب لأنبه إلى تحديد وضعية العلاقة بين كل منهما، لأنه بدون هذا التحديد سندخل فى متاهات محيرة ومهاو مدمرة، لا تقل خطورة عن الظن بحتمية التعارض بينهما.

وكما أوضحنا فإن هذه الوضعية لا يمكن أن تقوم على الفصل بينهما – كما هو الأمر فى التاريخ القديم والحديث على السواء – كما لا يمكن أن تقوم على فكرة التكامل لأن هذا التكامل مرفوض إسلاميا، بقدر ما هو مرفوض واقعيا.

إنه لابد من أن يقوم العلم بدوره المقدور له دائما: تابعا للدين.

وإذا كنا قد اثبتنا ذلك من الناحية التاريخية فإن إثباته من الناحية النظرية لا يقل أهمية؛ ذلك أن العلم لا يمكنه أن يمارس دوره إلا فى ظل مجموعة من القيم تقوده فى الطريق، وكما يقول الاستاذ فانيفاربوش الرئيس الفخرى لمعهد ما ساشوستش للتكنولوجيا (الذى يتبع العلم اتباعا أعمى ولا يتبع إلا العلم يصل إلى سد لا يستطيع أن يتجاوزه ببصره) ويكفى أن نضرب هنا مثلا لحالة قد يظن أنها خالصة للعلم، تلك هى إذا ما أردت من أحد العلماء أن يصمم لك طائرة، إن الأمر فى هذه الحالة لا يمكن الخطو إليه خطوة واحدة إلا فى ظل مجموعة من القيم، وذلك أنه لو استعمل العالم – مثلا – مادة ثقيلة أكثر مما يجب لكان مخطئا، لما يؤدى إليه ذلك من عجز الطائرة عن التحليق، لكننا فى هذه الحالة نكون قد استنجدنا بحكم قيمى، يوضح لنا أهمية (التحليق)، وكذلك الأمر فى تعلقه بجوانب أخرى من هذه العملية حيث نستند إلى مجموعة من القيم الأخرى التى توضح الغاية المرجوة من صنع الطائرة، وقد تتضارب الغايات التى يهدف المرء إليها فيحاول صنع طائرة صالحة

للعمل بأدنى تكلفة ممكنة، أو طائرة تستطيع التحليق إلى أعلى ارتفاع ممكن، أو قد تكون الغاية هى السرعة القصوى، أو المتانة القصوى، أو السلامة القصوى، ومن المحتمل أن تكون الأهداف المتباينة مما لا يمكن تحقيقه إلا بوسائل متباينة، لذلك فسلوك العالم يتوقف فى النهاية على تقرير الهدف الذى نقدمه له وتقرير هذا الهدف يتوقف على تقرير القيمة التى نعتنقها.

وكما يقول أحد فلاسفة العلم: إنك إذا سألت عالما عن الطريق الواجب عليك أن تسلكه لكان جوابه الوحيد الذى يمكنه الإدلاء به هو (هذا يتوقف إلى حد بعيد على المكان الذى تقصده).

وإذا كان ذلك يبين لنا أنه لابد من أن يعمل العلم فى ظل مجموعة من القيم السائدة ، فإنه ينبغى أن يكون من الواضح أننا إن لم نبادر إلى تنمية هذه القيم وتصحيحها بوصاية العقيدة والإيمان، فإن العلم يصبح أداة طيعة للقيم المنهارة المدمرة.

وتتضح خطورة هذه القضية أكثر ما تتضح فى ظل التقدم الهائل الذى أحرزه العلم الحديث. ولقد كان الفيلسوف الفرنسى المعاصر هنرى برجسون على حق حينما قال (يتطلب جسدنا المتوسع – بفعل التقدم العلمى الحديث – زيادة فى الروح...) وكما يقول العالم الفيزيائى المعاصر الشهير لويس دى برولى (على قدر ما تتزايد الوسائل التى أودعها العلم والتقدم الصناعى تحت أيدينا للعمل وبالتالى للتدمير فإن الخراب الذى نستطيعه يصبح مداه أعظم اتساعا، والجراح التى تتولد عن ذلك لا تشفى سريعا).

ويكفى أن نشير هنا إلى إمكانية واحدة رهيبة يشير إليها العالم الشهير تلك هى أنه منذ أكثر من نصف قرن يستخدم الفوضويون القنابل على نطاق واسع ويلقونها على الناس فى الأماكن العامة، أما الآن فان العصابات الدولية أصبحت قريبة من تصنيع القنبلة الذرية.

(فكيف يكون الأمر لو نجح الفوضويون الجدد فى استخدامها فى تهديد مدن بأسرها...).

هنا نمسك بتلابيب المأساة وجوهرها الحقيقى. (إن كل زيادة فى قوة التأثير – يقدمها العلم –تزيد حتما القدرة على الإضرار وكلما زادت قدرتنا على الغوث والإعانة زادت قدرتنا على الإساءة ونشر الدمار).

هنا يصبح لمشكلة القيم مغزى أعظم مما كان لها فى أى عصر من العصور. بل إن خطر هذه المشكلة – مشكلة – القيم – يعود ليؤثر فى الوضع الذى يحتله العلم نفسه، وليتقاضاه ثمن ما قدمه من مساعدة للقيم المنهارة.

ويكفى أن نشير هنا إلى نقطة تغيب عن كثير من الناس، تلك هى أنه إذا كان العلم الحديث قد ازدهر فى ظل قيمة (الحرية) فإنه فى الآونة الأخيرة – وبفضل ما أحرزه من تقدم رهيب – أصبح من الضرورى أن يدخل شيئا فشيئا إلى قبضة السلطة الحاكمة، إذ أين هى السلطة التى تجد ان بإمكانها أن تبتعد عما يحدث فى معسكر العلم مع ما يمثله ذلك من تهديد خطير لأهداف المجتمع، إن الدولة هنا لا تجد مناصا من أن تعنى بالبحث العلمى أكثر من ذى قبل، بل تجد نفسها مضطرة إلى السيطرة على أسرار معينة، ومضطرة أيضا إلى أن تخضع النشاط العلمى للتنظيم والتفتيش اللذين لم يتعود عليهما.

وكما يقول لويس دى برولى عالم الفيزياء الذى سبق أن ذكرناه:

(إنه حتى فى الولايات المتحدة لم يعد العلماء الذين يعرفون أسرار الذرة يملكون حرية الحركة..)

وهنا يتعرض العلم الحديث لدور تاريخى مناقض للدور الذى انتعش فى ظله، وتعود مشكلة القيم لتؤكد دورها الرئيسى فى قيادة العلم

وإذا كنا قد توصلنا إلى هذه النتيجة وهى قيادة القيم للعلم، فإنه من الواضح أن نسلم بقيادة العقيدة له، لأن القيم لا تستقى إلا من العقيدة، ولا تقوم إلا عليها.

وهنا نود أن نعلن أن الإسلام وحده هو الذى يقدم مجموعة القيم التى تضع العلم فى مناخ يسمح له بالنمو إلى حيث يشاء، وتقوده فى نفس الوقت فى طريق التقدم (بالإنسان).

ويكفى أن نشير هنا إلى حقيقة، تلك هى: أن من يوكل إليه صياغة هذه القيم ينبغى أن يحيط علما بكل شئ، إنه إذا كان الإنسان جزءا من هذا الكون، يؤثر فيه، ويتأثر به فإنه من المقرر أنه لا يمكن أن تعرف الجزء معرفة دقيقة حتى تعرف الكل الذى ينتمى إليه.

وكما يقول الأستاذ مونتاجيو أحد علماء الأنثروبولوجيا المرموقين وهو بصدد الدعوة لاستخدام العلم فى تحسين حاضر البشر ومستقبلهم (إن التعليم الضئيل شئ خطر، وإنه لمن الضرورى والحالة هذه التزام أعظم جانب من الحذر عند بحث جميع المشكلات أو التوصيات التى تهدف إلى التحكم لا فى حياة الأحياء فحسب، بل أيضا فى حياة الذين لم يولدوا وبعد)

ومن هنا فإننا نقول: إن الكلمة فى هذا المقام لمن يحيط علما بالكون، إنها ليست للعلم أو الفلسفة أو الإنسان، وإنما هى للوحى الذى يعبر عمن يحيط علما بكل شئ.

﴿ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُّحِيطًا ﴾ ١٢٦ النساء.

﴿ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا ﴾ ١٢ الطلاق.

﴿ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَ ﴾ ٢٥٥ البقرة.

﴿ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُۥ تَقْدِيرًا ﴾ ٢ الفرقان.

﴿ أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ﴾ ١٤ الملك.

إن الله سبحانه وتعالى هو وحده صاحب الكلمة لأنه وهو صانع الإنسان يصبح من ثم – ونزولا على منطق التكنولوجيا أيضا ليس لأحد غيره باعتباره الصانع أن يرسم لك طريقة بناء المصنوع أو تشغيله.

وأنت إذا تجاوزت الصانع فى تشغيل المصنوع، انتهيت إلى تدمير المصنوع، هذه بديهية مستقاة من منطق العلم ومن عالم الصناعة معا، ومن هنا فإننا إذا كنا بصدد صياغة القيم التى تقود العلم فى طريق الإنسان كان لا مفر لنا من الالتجاء إلى صانع الإنسان، ويصبح الأمر من ثم لا مجال فيه للدعوة إلى علمنة القيم، وإنما ينقلب الوضع لتعود الرأس إلى مكانها الطبيعى، وليصبح العلم هو الرجلين اللتين تخطوان بالإنسان وفقا للتوجيه الصادر من الدين. والنتيجة النهائية لما كتبناه هى أنه يلزم فى الوقت الراهن أن نهتم بوضعية العلاقة بين العلم والدين، وأنه لا مفر واقعيا ونظريا من أن يحتل العلم مكانته فى هذه الوضعية: تابعا مطيعا للدين.

وهذا هو التعبير الصحيح عن التيار الإسلامى فى وضعية المواجهة بين العلم والدين، تنتهى فيه هذه المواجهة إلى تسليم العلم قياده للدين.

(ب) وهناك تيار إلحادى يجعل الكلمة العليا للعلم، وعندئذ فهو ينكر على الدين نتائجه ووسائله على السواء، ويحاول أن يقتلعه من جذوره.

وإذا فهى معركة بين العلم والدين، ينبغى فى نظر هؤلاء أن تنتهى بالقضاء على الدين.

وينطلق (الإلحاد العلمى) هنا من قواعد تنتمى إلى (الفلسفة العلمية ولا تنتمى إلى العلم ذاته)[1].

والفكر الإسلامى لا ينبغى له أن يهاب هذا الموقف، فهو مفروض عليه سواء أراد أو لم يرد. إنه لم يعد كافيا فى الدفاع عن الدين ضد الإلحاد المستند إلى العلم أن نقتصر على بيان اختلاف المجال فى كل من الدين والعلم من ناحية، أو بيان التوافق بينهما من ناحية أخرى، فهذا الموقف يدخل السرور على عتاة الإلحاد العلمى لأنهم يدركون قصوره، إنما الموقف الذى ينبغى أن نقتحمه هو أن ننتقل من الدفاع إلى الهجوم، والهجوم هنا ينبغى أن يتجه إلى ضرب القواعد التى يستند إليها الإلحاد المعاصر (العلمى) فى محاربته للدين:

---

(١) لأن العلم فى أبوابه الأصلية: النظريات والقوانين يعلن انه يقوم على الظن لا على اليقين.

وهذه القواعد فى تقديرى ثلاثة:

القاعدة الأولى: إنكار كل الغيبيات التى لا يمكن إخضاعها للملاحظة والتجربة.

القاعدة الثانية: الزعم بأن حتمية القوانين الطبيعية من ناحية وقوانين التطور التقدمى من ناحية أخرى يمكن الاستغناء بهما عن افتراض وجود الله وعلمه وإرادته كتفسير لوجود العالم وحركته وتغيره.

القاعدة الثالثة: ادعاء كفاية المنهج العلمى فى المعرفة من ناحية، والقيم من ناحية أخرى، والاستغناء به عن المناهج المعرفية الأخرى التى تقوم بها الفلسفة الميتافيزيقية أو الدين. وهنا نجد المجال مفتوحا أمام الباحثين لضرب هذه القواعد.

وسوف نخصص الباب التالى لبيان بعض الجوانب التى تقوم بضرب القاعدة الأولى (إنكار الغيبيات) من حيث نبين ما يقوم عليه الإلحاد العلمى من ركائز هى دين أو شبه دين، ولكنه دين وضعى ينطبق عليه قوله تعالى: ﴿ قُلْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْكَـٰفِرُونَ ۝ لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ۝ وَلَآ أَنتُمْ عَـٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ۝ وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ ۝ وَلَآ أَنتُمْ عَـٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ۝ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِىَ دِينِ ﴾ .

ثم نخصص الأبواب الباقية لضرب القاعدة الثانية، ثم لضرب القاعدة الثالثة.

obeikandi.com

obeikandl.com

الباب الثانى

الديانة الوضعية المعاصرة

obeikandl.com

obeikandl.com

إن الإلحاد العلمى المعاصر وهو يحارب الدين المنزل من الله يدعو إلى ديانة وضعية من صنع البشر.

ومرجعنا فى ذلك إلى أن للأديان بشكل عام خصائص عامة. وأن الإلحاد المعاصر يدعو أو يقوم على هذه الخصائص وهى:

١- التسليم الأولى أو "الاعتقاد" الذى لا يشترط البرهان.

٢- وضع مجموعة من المبادئ العليا التى لا يمكن الاستغناء عنها ومع ذلك فهى غير قابلة للبرهنة.

٣- الأيمان بموجود لا يمكن إدراكه بالحواس سواء كان هذا الإدراك مباشرا أو غير مباشر.

٤- الخضوع أو التعبد لقانون أو إرداة ذلك الموجود.

٥- انتظار الآخرة، أو المستقبل الذى يعالج نقائص الوضع الحاضر.

ولا شك أن هناك اتفاقا عاما بين الأطراف جميعا – مؤمنين وملحدين، على أن هذه هى خصائص الدين

وعلينا فيما يأتى أن نبين توافر هذه الخصائص فى المنظومة التى يقوم عليها الإلحاد العلمى المعاصر.

يقول فيليب موريس هاوزر[1]:

(العلم نوع من الأديان ، والعالم رجل دين وهب نفسه للقيم التى آمن بها من

---

(١) أستاذ ورئيس قسم الاجتماع بجامعة شيكاغو.

البحث عن المعرفة، وأنت تجد فيه نفس التعصب الذى تجده فى المبشر أو القسيس)[1].

ومن حقنا أ، نقرر أن هذا الإلحاد إنما يدعو إلى دين جديد، يستبدل فيه الذى هو أدنى – ديانة بشرية وضعية –بالذى هو خير – الديانة الإلهية.

(١) من كتاب "من حياة العلماء" ليتيوردور بيرلاند ص ٣٤٤.

obeikandl.com

الفصل الأول

التسليم فى العلم

obeikandl.com

obeikandl.com

الإيمان الأولى والعلم:

القاعدة الأولى التى يقوم عليها الإلحاد المعاصر هى: إنكار كل ما لا يدرك بالملاحظة أو يخضع للتجربة.

وللرد على هذا الإنكار نقرر هنا إن الإلحاد المعاصر وهو يستند إلى العلم – يعترف بمبدأ التسليم الأولى أو الاعتقاد الذى لا يشترط البرهنة.

أما أنه يعترف بمبدأ التسليم الأولى "الاعتقاد" الذى لا يشترط البرهنة فنورد هنا طائفة من أقوال لعلماء التجريبيين أو فلاسفتهم التى تعترف بهذه الحقيقة:

يقول البرت بروس سابين[1].

(إن العلم والدين كليهما يقومان على الإيمان)[2].

ويقول الدكتور تشارلز هارد تاونز:

(أصبح الإيمان فى العلم شيئاً تلقائياً، حتى لم يعد يراه الناس، ففى العلم إيمان بأن للكون نظاما يمكن للعقل البشرى فهمه. وهذا الإيمان ليس قديما وإنما نشأ منذ قرون عدة، وإذا لم يكن للمرء هذا الإيمان فإنه يلقى نفسه فى وسط الخرافات التى تقوم على عدم وجود نظام للكون.. ولكننا لا نستطيع أن نثبت بأى طريق أساسية أن الكون منظم ومنطقى، ولكن هذا شئ لا يمكن إثباته، إنه فى حقيقة الأمر إيمان، إيمانا يبدو أن له ما يبرره)[3].

ويقول الدكتور جيمس "ب" كونانت:

---

(١) عالم الميكروبات الشهير وصاحب مصل شلل الأطفال "سابين".

(٢) من كتاب "من حياة العلماء" نشر دار النهضة العربية ص ٣٤٥.

(٣) من حياة العلماء لتيودور بيرلاند نشر دار النهضة العربية ص ٨٩ – ٩٠.

obeikandi.com

(إنه ليس بين الملاحدة واللاأدريين من كان فى قلبه من الإيمان باطراد الطبيعة واتساقها ما يكفى لممارسة العلم، وتجارب العلماء)[1].

ويقول اينشتاين:

(أن العلم لا يخترعه إلا أولئك المتشبعون تماما بحب الحق والإدراك السليم، وهذا مصدر من مصادر الشعور ينبع من ميدان الدين. ويتصل بهذا الميدان الإيمان بأنه من الممكن أن تكون القواعد التى تنطبق على عالم الوجود معقولة. أى يمكن إدراكها بالعقل.

ولا أستطيع أن أتصور عالما بغير هذا الإيمان العميق، ويمكن التعليق على هذا الرأى بهذه الصورة: العلم بغير دين أعرج. والدين بغير علم أعمى)[2].

ويقول هرمان راندال (إن النظرة الكونية العملية التى عرفت فى نهاية القرن التاسع عشر... كانت بالطبع إيمانا يمكننا أن نصفه بأنه ضرب من التشبث).

(لقد كان من المستحيل أن يتجنب الباحث انتخاب حقائقه التى يريدها على نور نظرية سبق أن اعتقد بها)[3].

يقول كونانت:

(إن باستور كان يدفعه فى كل ما صنعه إيمان عنده قوى بالفروض يبتدعها من عند نفسه. وكان إيمانه الشديد تعمده وتسنده أشياء أخرى غير الحقائق وما يخرج منها بالمنطق.

فهذا مثل لما أعنى. حمله إلى النصر فيه الإيمان الأقوى الذى لم يعتمد فيه إلا على الدليل القليل)[4].

---

(١) أنظر أراء فلسفية لأدرين كوخ.
(٢) أنظر أراء فلسفية لأدرين كوخ.
(٣) تكوين العقل الحديث جـ٢ ص ٣٤٩، ٣٥٠، ٢٨٢، ١٧٨.
(٤) مواقف حاسمة ص ٣١٨ وباستور هو مكتشف المكروبات ١٨٩٥م.

obeikandl.com

ويقول د. جون كيمنى:

(إنه لا يمكن أن نسوغ فرضية معينة، إلا أن علينا أن نؤمن بفرضية على شاكلتها إذا أردنا للحياة أن تغدو ممكنة)[1].

ويقول وليم جيمس:

(نحن نؤمن كل الإيمان بأن الأشياء حتى ما يبدو منها كثير التعقيد والاضطراب لابد أن يصاغ يوما فى قاعدة جلية واضحة..)[2].

التحقيق من النظريات العلمية يخضع للإرادة والإيمان:

يقول جون كيمنى:

(مفتاح التحقق من النظريات هو أننا لا نتحقق منها البتة. ذلك لأن ما نتحقق منه هو المترتبات المنطقية للنظرية.

فالتحقق هو عملية التأكد من أن ما قد تكهنا به هو فى الواقع كذلك، ولما كنا لا نستطيع سوى مشاهدة حقائق منفردة.. فإن علينا أن نتحقق من المترتبات المنفردة لنظرية ما وليس النظرية بالذات.

وحتى إذا تبين أن تكهناتنا غير صحيحة فلا يمكن لنا أن نتأكد أن النظريات هى الخاطئة، إلا أننا واثقون من أن نظرية ما هى نظرية خاطئة – وعليه نعود إلى البحث عن أبسط الطرق لتحسين مجموعتنا من النظريات.

إنه بإمكاننا أن ننقد أى نظرية ولكن على حساب جعل النظريات الأخرى أكثر تعقيدا، ومن أجل هذا، يكثر من يذهب إلى أن كل تجربة هى فى الواقع امتحان لمعرفتنا قاطبة.

ولنأخذ مثالا على ذلك فى حياتنا اليومية.

---

(١) الفيلسوف والعلم ص ١٨٣.

(٢) العقل والدين ص ٨٨ – ٨٩.

هناك فرضية تقول بأن هذه الصحون الطائرة هى قذائف من الفضاء الخارجى. إلا أننى أود أثبت بأنى لو أردت القول بأن لهذه الصحون سببا أرضيا، فلن يثنينى عن اعتقادى أى دليل.

فى إمكانى أن أعدها وهما جماعيا فحسب.

وإذا قيل إن شاشة الرادار قد تبينت وجودها منذ عهد قريب كان فى وسعى رد ذلك إلى أن عامل الرادار هو نفسه مصاب بالوهم وخداع الحواس.

وإذا أكد الكثيرون رؤية هذه الصحون على شاشة الرادار أمكن لى أن أفترض وجود تأثير كهربى مسبب عن كثرة أجهزة الإرسال التلفزيونية التى تؤدى كثرة عددها إلى تشكيل هذه الصحون، وصورها على شاشة الرادار، ولا شك أن هذا قد يتضارب مع ما نعرفه حول العلم الكهربى، إلا أننى استطيع تعديل النظرية الكهربية المغناطيسية لإنقاذ فرضيتى المفضلة. ومازلت على استعداد لتعديل عدد كاف من النظريات الأخر.. أما إذا أسقطت قذيفة من هذا النوع بالفعل يجب عندئذ أن أطرح جانبا الفرضية القائلة بأن الأمر كله وهم.

إلا أننى أستطيع الافتراض بأنها أتت من بلد آخر من بلدان العالم. وإذا تبين أن بداخل "الصحن" الطائر كيانا يختلف عن كل ما نعرفه فإنه لا يزال بإمكانى أن افترض بأنه قد جاء من جزيرة مجهولة أو حتى من جوف الأرض.. إلا أن افتراض وجود الحياة فى جوف الأرض الحار يتطلب تعديل عدد من النظريات، فإذا لم أتردد فى ذلك أمكننى أن أنقذ فرضيتى المفضلة.

وإذا حملنى أحد ركاب هذا الصحن وحلق بى إلى الفضاء الخارجى فإنه يمكننى أن أقول بأن الآلة التى أركبها قد حملتنى فى رحلة صاروخية عرض خلالها شريط سينمائى شعرت معه كأننى أنظر إلى الأرض وهى تتباعد عنى. وحتى لو حط فوق سطح المريخ فإنه يمكن لى أن أعلل ذلك بأننى قد وضعت تحت تأثيره المغناطيسى.

وإذا عيل صبر القارئ من ارتيابي بالأمور فمرد ذلك إلى أنه بلغ نقطة يعدو فيها القبول بوجود هؤلاء المسافرين بين الكواكب السيارة أسهل من تعديل نظريات أساسية)[١].

ولهذا صرح كارل بيرسن بأن القانون العلمى ليس كشفا ولكنه اختراع.

يقول:

(فالقانون العلمى ليس كشفا لعلاقات موجودة فى طبيعة الأشياء، ،إنما هو اختراع لهذه العلاقات، وهو وصف مختصر لطريقة الانطباعات الحسية فى مجال معين، أو اختزال ذهنى يحل لدينا محل الوصف المطول لتعاقبات الانطباع الحسى)[٢].

الإلهام فى العلم:

من المسلم به فى الأوساط العلمية أن المنهج العلمى كان محتاجا لغيره لإحراز تقدمه وانتصاراته.

يقول الدكتور كونانت:

(أعظم الفروض التمهيدية الكبرى التى جاء بها تاريخ العلم نشأت نتيجة لعملية ذهنية يعبر عنها أحيانا بأنها "مسة من عبقرية" أو "خاطرة ملهمة" أو "ومضة من خيال باهر" وقلما يتبين فيها الناظر أنها كانت نتيجة تمحيص للنتائج كلها أو تحليل منطقى لها)[٣].

ويقول البرت أينشتين:

(إن العصر ذا القيمة الحقيقية هو عصر البديهة).

---

(١) الفيلسوف والعلم ص ١٥١ – ١٥٤.

(٢) مجلة تراث الإنسانية، العدد ١٢ مجلد ٣ ص ٩٢٢.

(٣) مواقف حاسمة لجيمس كونانت ص ٨٢، وأنظر أيضا (الفيلسوف والعلم) جون كيمنى ص ١٧٥، و(فن الإبداع) لليونيل روبى ص ٣١٧.

ويقول ليونيل روبى:

(إن اكتمال البحث قد يكون أحيانا بديلا كافيا عن الخيال، كما يحدث فى البحث الصناعى، ولكن... فى المستويات العليا للعلم لا يمكن أبد أن يكون بديلا كاملا)(١).

ويقول فيليب فرانك:

(أن المقدرة التى نحتاجها لكى نحصل على المبادئ العامة للعلم يمكنا أن نسميها الخيال)(٢).

٢ـ الإيمان بالمبادئ العليا للعلم:

ليس الإيمان من ضروريات الدين فحسب، وليس ضرورة من ضرورات "المعقولات" فحسب أيضا. ولكنه فوق ذلك كله:

ضرورة من ضرورات العلم التجريبى:

١ - يقرر هربرت سبنسر فى كتابه "المبادئ الأولى" فى كلامه عن الأفكار العلمية القصوى: أن العلم مضطر إلى الاستعانة بالكثير من المفاهيم الغامضة التى لا سبيل إلى تفسيرها كالزمان، والمكان، والمادة، والحركة والقوة وما إلى ذلك. وليس فى استطاعة العقل البشرى أن يستغنى عن أمثال هذه المفاهيم.

وأننا لو حاولنا أن نتصور كل هذه المفاهيم العلمية فى العقل تصورا واضحا متمايزا لانتهينا إلى مجموعة من المتناقضات التى لا يمكن يقبلها العقل. ولننظر مثلا إلى مفهوم المكان والزمان: فهل نقول بأنهما مفهومان واقعيان موضوعيان أم نقول بأنهما مفهومان ذاتيان؟ هذا ما يجيب عليه سبنسر بقوله: إن العقل البشرى عاجز تماما عن تفهم حقيقة أمر كل من "المكان والزمان".

---

(١) المصدر السابق.

(٢) فلسفة العلم ص ٦٨.

وهكذا الحال بالنسبة إلى المفاهيم الأخرى كمفاهيم المادة والحركة والقوة، إنها جميعا تصورات غير قابلة للتعقل.

ومع أن سبنسر يحاول أن يكتشف شيئا عن حقيقة هذه المفاهيم، فهو فى هذه المحاولات ينتهى إلى أن ما يعلم منها يدل على حقيقة مجهولة نسلم بوجودها من غير أن نعرفها.

ويرى سبنسر أن الزمان والمكان مفهومان مشتقان على سبيل التجريد من شعورنا بنوعين من العلاقة هما علاقة التتابع، "الزمان" وعلاقة المعية، "المكان"، وأن مفهوم المادة يرجع إلى أبسط صورة لإدراك المادة، وهى تلك التى نجد أنفسنا فيها بإزاء أوضاع متحيزة ذات مقاومة، وهو يرى أننا لو جردنا الجسم من ضروب المقاومة التى ينطوى عليها لاختفى شعورنا بالجسم تاركا وراءه مجرد شعورد بالمكان.

وأما فكرة الحرية فيرى سبنسر أنها مجرد فكرة لاحقة على شعورنا بالقوة.

وشعورنا بالقوة يأتى من إحساسنا بالتوتر الذاتى، والمقاومة الموضوعية ولذا يرى سبنسر أن (القوة) هى الفكرة النهائية للأفكار العلمية النهائية.

ويرى سبنسر أن القوة التى نحدث بمقتضاها كل ما نحققه من مظاهر التغير هى بطبيعتها قوة نسبية، ومحدودة وهى معلول لعلة أخرى غير مشروطة وهى القوة المحضة التى نجد أنفسنا مضطرين إلى إقراراها لتكون بمثابة الطرف المقابل للقوة المعلومة.

وهذه القوة المحضة هي العلة الوحيدة التى تتمتع بالثبات أو الدوام والتى ليس لها بداية أو نهاية، ويستنتج سبنسر من ثبات القوة، واستمرارها ثبات العلاقة بين القوى واضطراد القانون.

ويمضى سبنسر إلى حد أبعد من ذلك حيث يستنتج من مبدأ ثبات القوة نتيجة أخرى هى: "تحول القوى وتكافؤها".

obeikandi.com

ويرى أن ذلك لا يصدق على القوة الطبيعية وحدها بل يصدق أيضا على العلاقة القائمة بين القوى الجسمية والقوى النفسية.

ومعنى هذا أن مظاهر القوة التى نسميها باسم الحركة والحرارة والضوء، و.... الخ تقبل التحول أيضا إلى المظاهر الأخرى التى نسميها الإحساس، والانفعال، والتفكير، إن لم نقل أن هذه بدورها – تقبل التحول إلى المظاهر التى سبقتها.

وهكذا نجد أن فى التعليل النهائى الذى يقدمه سبنسر لما يسميه الأفكار العلمية القصوى، تنهار الحدود التى يضعها الماديون للمادة لتقف فى نفس الموقف الذى توجد فيه المجردات المسلمة.

٢- ويقرر برتراندراسل – بالرغم من لا أدريته التى يوظفها لمحاربة الدين "أن المبادئ العامة لتدعيم الاستدلالات العلمية غير قابلة للبرهان بأى معنى مألوف".

ومما يستدل به على ذلك إيمانه بما يسميه "التوقيع الحيوانى" الذى لا يمكن البرهنة عليه منطقيا – كتوقع الحيوان فى خبرته رائحة بعينها تدله على صلاحية الأكل أو عدم صلاحيته – هذا التوقع الذى يرقى حتى يستخدم فى أرقى قوانين الفيزياء الكمية.

ويؤكد أنه (ليس من الممكن أن ننتقل خطوة واحدة إذا نحن بدأنا من الشك الديكارتى).

ويقول (فعلينا إذن أن نبدأ من تسليم عريض بكل ما يبدو أنه معرفة أيا ما كان وأنه ليس ثمة سبب معين لرفضه).

ويذهب فى تعداد المسلمات التى يراها إلى خمس مسلمات هى كما يسميها: مسلمة شبه الدوام، ومسلمة الخطوط السببية القابلة للانفصال، ومسلمة الاستمرار المكانى والزمانى، والمسلمة البنائية، ومسلمة التمثيل.

ونحن لا نجد ضرورة هنا لشرح هذه المسلمات ولكننا نود أن نوضح أنه يستبدل

هذه المسلمات بمسلمات أخرى هى مسلمة (السببية) أو "انتظام الطبيعة" بدعوى أن مسلماته أكثر تحديداً وفاعلية[1].

هكذا بغير برهان..

هكذا لأنها أكثر تحديدا..

هكذا لأنها من الناحية العلمية ضرورية..

وهل يفعل المؤمن بالدين شيئا يستغنى فيه عن البرهان بأكثر من ذلك؟

٣- يقول الأستاذ إسماعيل مظهر:

(يعتد الماديون المنكرون للقوة المدبرة لهذا الكون بعقليتهم بأكثر مما فى استطاعتهم أن يثبتوه لها)[2].

فهناك أشياء يستحيل على العلم الطبيعى أو الفكر نفسه أن يصل إليها: أهمها الماهيات.

خذ مثلا ماهية الحرارة أو الكهرباء فإنهم لا يستطيعون أن يقولوا فيها إنها أكثر من قوة طبيعية.

على أن كلمة "قوة" و"مادة" تلك التى يعتبرونها من الأوليات الضرورية – وإنها لذلك من حيث ظاهرتها المحسوسة – لا تؤدى إلى العقل إلا معانى غامضة إذا نظر إليها من ناحية ما هيتها.

وكذلك الحال فى "الحياة" إذا نظرت إليها من ناحية الماهية فإنى لا أستطيع أن أعرف مهما قلبت صفحات الماديين ما هو الفرق الحقيقى بين القول بخلقها وبين القول بأنها ولدت ذاتيا، ماديا، مادمنا لم نعرف ماهيتها ولا حقيقتها، لأن كلا الأمرين يلزم العقل بأن يفرض أن فى الطبيعة قوة مبهمة غامضة.

٤- ويقول إميل بوترو:

---

(١) فلسفتى – كيف تطورت من ص ٢٤٥ إلى ص ٢٥١.

(٢) فلسفتى – كيف تطورت من ص ٢٤٥ إلى ص ٢٥١.

(إن مقالة ديبوا ريموند[1] المشهورة التى اختتمها بقوله "لآ أعلم" لم تزل منذ سنة ١٨٨٠ تتعقب عقول المفكرين. فقد نص على ألغاز سبعة أربعة منها على الأقل لا تقبل الحل أبداً وهى:

ماهية المادة وأصل الحركة، واصل الإحساس البسيط، والحرية).

أما الباقى فهو (أصل الحياة، والغائية الظاهرة للطبيعة، وأصل الفكر واللغة وهذه الثلاثة الأخيرة يمكن إرجاعها إلى الميكانيكا العلية[2]).

٥- وإذا كان أرنست هيكل (١٨٨٤ - ١٩١٩) فى كتاب ألغاز الكون لم يقبل ما أعلنه ديبوا ريموند وقرر (أن جميع ألغاز دييوا ريموند قابلة للحل أو قل إنها منذ الآن قد حلت) تبعا لمذهبه الواحدى فإنه استبقى سرا منها هو:

(الجوهر... فما هو هذه القوة الهائلة... التى يسميها العالم الطبيعة أو العالم؟

ويسميها المثالى الجوهر أو الكون؟

ويسميها المؤمن الخالق أو الله؟

وينبغى الاعتراف بأن ما هية هذا الجوهر تصبح أعمق سرا وأشد خفاء كلما نفذنا إلى العلم بصفاتها وتطورها، فنحن لا نعرف الشئ فى ذاته، ذلك الذى يكون وراء الظواهر المدركة).

وهكذا يمكننا أن نقول: إنه حتى فى نظر أرنست هيكل الملحد يتساوى التسليم بالله والتسليم بالطبيعة والتسليم بالجوهر من حيث كونه إيمانا بما هو اعمق سرا وأشد خفاء، كلما خيل إلينا أننا نعرف عنه شيئا.

---

(١) عالم المانى من أصل فرنسى اشتغل بعلم وظائف الاعضاء ١٨١٨ - ١٨٩٦م.
(٢) العلم والدين ص ١١١.